

هنشير الشعّال.. قرن من الزيتون ومنظومة فلاحية تستعيد أنفاسها

من مشروع فلاحى استعماري في أواخر القرن التاسع عشر إلى أكبر مركب فلاحى في تونس تقريباً..
تاريخ طويل، ثروة هائلة، وإصلاحات جديدة تفتح الطريق أمام موسم 2026-2027

في عمق صفاقس، حيث تبدو شجرة الزيتون أحياناً كأنها جزء من ذاكرة المكان لا مجرد غراسة، تمتد حكاية هنشير الشعّال على أكثر من قرن. حكاية أرض شاسعة بدأت في زمن الحماية الفرنسية، ثم تحولت بعد الاستقلال إلى ملك عمومي، وظلت على امتداد عقود واحدة من أبرز التجارب التونسية في استغلال الأراضي الفلاحية الكبرى.

لكن الشعّال لم يولد سنة 1920، كما قد توحي بعض الروايات المختصرة. جذوره تعود إلى أواخر القرن التاسع عشر، حين مُنحت سنة 1897 أراض واسعة لشركة الفسفاط والسكة الحديدية بقفصة في إطار مشروع للاستصلاح والاستغلال الفلاحى. وكانت الفكرة تقوم على تحويل مساحات واسعة إلى مستغلة حديثة، مع إعطاء الزيتون مكانة محورية.

حوالي سنة 1900، انطلقت عملية إحياء الأرض وتوسيع غراسة الزيتون، فبدأت ملامح الهنشير تتغير تدريجياً. ومع بداية موسم 1920-1921، دخل الشعّال مرحلة جديدة، حين تحولت الغراسة إلى نشاط فلاحى وصناعى أكثر تكاملاً، وشُيّدت معصرة حديثة قادرة على معالجة نحو 40 طناً من الزيتون يومياً. ثم أضيفت معصرة ثانية سنة 1923.

وخلال الفترة بين الحربين العالميتين، اتسع النشاط وتنوع، حتى أصبح الشعّال نموذجاً للمستغلة الفلاحية الكبرى التي تجمع بين الزيتون وتربية الحيوانات وإنتاج الحليب واللحوم والعسل، قبل أن تتوسع لاحقاً إلى غراسات أخرى مثل اللوز والفسطق.

وهكذا، فإن تاريخ الشعّال هو في جوهره تاريخ منظومة إنتاج: الأرض تنتج، والمعصرة تحول، والحيوان يثمن جزءاً من الموارد، والسوق يستقبل المنتجات.

واليوم، بعد أكثر من قرن، يجد هذا الإرث نفسه أمام سؤال جديد: هل يستطيع الشعّال أن يستعيد دوره كأحد أهم أقطاب الزراعة العمومية في تونس، وأن يتحول من مجرد ملكية شاسعة إلى منظومة فلاحية حديثة، منتجة ومقاومة للجفاف؟

لماذا الشعّال؟ عندما اختارت الجغرافيا الزيتون

لم يكن اختيار منطقة الشعّال لإنشاء مستغلة فلاحية بهذا الحجم اعتباطياً.

فالمنطقة توفر مساحات واسعة قابلة للاستصلاح، ومناخاً شبه جاف يلائم الزيتون، كما أن موقعها في محيط صفاقس جعلها مرتبطة بشبكة النقل والأسواق

وكان الزيتون خياراً منطقياً في بيئة تقل فيها الموارد المائية، إذ تتميز شجرة الزيتون بقدرتها على تحمل الجفاف مقارنة بالعديد من الزراعات الأخرى. كما أن زيت الزيتون كان منذ ذلك الوقت منتجاً تجارياً مهماً وقابلاً للتسويق والتصدير

لكن أهمية المشروع لم تكن في زراعة الزيتون وحدها. الفكرة كانت إنشاء مستغلة فلاحية رأسمالية واسعة تنتج وتحول وتبيع

وهنا تكمن خصوصية الشغل منذ بداياته: لم يكن مجرد غابة زيتون، بل مشروعاً يجمع بين الزراعة والتحويل والتربية الحيوانية والتسويق

31,700 هكتار أرقام الشغل

المساحة الجمالية للمركب وفق أحدث المعطيات المعلنة في 2026، منها حوالي 18 ألف هكتار من الزيتون المنتج ونحو ألف هكتار من الفستق

من ملكية استعمارية إلى ثروة عمومية

مع الاستقلال، تغيرت هوية الشغل جذرياً

فالأرض التي كانت جزءاً من منظومة فلاحية استعمارية أصبحت من أملاك الدولة التونسية، وانتقل المركب إلى مرحلة جديدة في تاريخه. وأصبح المطلوب منه ليس خدمة مشروع استثماري أجنبي، وإنما المساهمة في الإنتاج الفلاحي الوطني، والمحافظة على الثروة العقارية، وتوفير مواطن الشغل، ودعم الاقتصاد المحلي والأمن الغذائي

وتؤكد المعطيات الرسمية أن الشغل أصبح ملكاً للدولة وتحت تصرفها، وأن نشاطه يشمل مختلف مراحل السلسلة، من المتابعة الفلاحية والجني إلى تحويل الزيتون إلى زيت. كما كان يشغل، وفق معطيات سنة 2024، حوالي 435 عوناً وعاملاً قاراً و385 عاملاً عرضياً

ومع مرور السنوات، أصبحت غابة الزيتون قلب هذا المكسب العمومي

ألف هكتار من الزيتون.. ثروة عمرها أكثر من قرن 18

تكشف الأرقام الحديثة عن حجم استثنائي للمركب

فبحسب مدير المركب في يونيو 2026، تبلغ المساحة الجمالية حوالي 31,700 هكتار، منها نحو 18 ألف هكتار من الزيتون المنتج، إلى جانب حوالي ألف هكتار من الفستق. ويضم النشاط الحيواني حوالي 600 رأس من الأبقار و2400 نعجة منتجة، فضلاً عن إنتاج يقارب 700 ألف بيضة

أما معطيات رئاسة الجمهورية ووكالة تونس إفريقيا للأنباء التي نشرت عقب زيارة قيس سعيد سنة 2024، فتشير إلى وجود حوالي 400 ألف شجرة زيتون منتجة، وأن مساحة غابة الزيتون تبلغ حوالي 18,724.5 هكتاراً

هذه الأرقام تجعل الشغال أكثر من مجرد ضيعة كبيرة. إنه مشهد زراعي كامل

لكن حجم الثروة يرافقه تحدٍّ كبير: جزء مهم من الغابة قديم، والمناخ أصبح أكثر قسوة

فالجفاف المتكرر لم يعد ظاهرة عابرة، بل أصبح عاملاً يجب أن يدخل في صميم كل قرار يتعلق بمستقبل الغراسية

400 ألف شجرة زيتون أرقام الشغال

غابة زيتون شاسعة تمتد على أكثر من 18.7 ألف هكتار، وتعد من أبرز غابات الزيتون الكبرى في العالم من حيث المساحة.

الماء.. التحدي الذي يقرر مستقبل الغابة

كان نجاح الزيتون في الشغال مرتبطاً تاريخياً بقدرته على التأقلم مع الجفاف

لكن السنوات الأخيرة فرضت معادلة أكثر صعوبة: ارتفاع درجات الحرارة، تراجع الأمطار، وتواتر فترات الجفاف.

وهذا ينعكس مباشرة على إنتاجية الشجرة وعلى قدرة الغابة على التجدد

لذلك لم تعد مسألة الري مجرد تحسين تقني، وإنما أصبحت جزءاً من استراتيجية بقاء

ويحتاج الشعّال إلى تطوير الري التكميلي حيث تسمح الموارد، واعتماد الري الموضعي، واستعمال الطاقة الشمسية في بعض المنشآت المائية، إلى جانب تجديد الغراسات الهرمة وتعويض الأشجار التي فقدت قدرتها الإنتاجية

المعادلة المستقبلية ليست في تحويل الغابة البعلية إلى غابة مروية بالكامل، فهذا غير واقعي في منطقة تعاني أصلاً من ندرة المياه، وإنما في استعمال كل قطرة بأعلى مردودية ممكنة

الشعّال ليس زيتوناً فقط

ربما يكون اختزال الشعّال في الزيتون أكثر الأخطاء شيوعاً في قراءة هذه التجربة

فالمركب يقوم على منظومة متعددة الأنشطة، وهو ما يمنحه قدرة أكبر على تنويع المداخل وتأمين الموارد

الفسق.. رهان على التنويع

تبلغ مساحة الفسق حوالي ألف هكتار وفق المعطيات المعلنة في 2026

ويشكل هذا النشاط رافداً مهماً إلى جانب الزيتون، خصوصاً أن الفسق من الزراعات التي يمكن أن تتلاءم مع الظروف المناخية الجافة وشبه الجافة

وتكمن أهميته أيضاً في أنه يخفف نسبياً من الارتهاق لمحصول واحد، ويمنح المركب إمكانية بناء سلة منتجات فلاحية أكثر تنوعاً

الأبقار.. إنتاج الحليب داخل المنظومة

يضم الشعّال حوالي 600 رأس من الأبقار، وفق أحدث المعطيات المتاحة

وتربية الأبقار تعني منظومة كاملة من الأعلاف والصحة الحيوانية والتكاثر والمتابعة وإنتاج الحليب

وهنا تظهر أهمية التكامل: الأرض يمكن أن توفر جزءاً من الأعلاف، والمخلفات الزراعية يمكن تسمينها، والسماذ الحيواني يمكن أن يعود إلى التربة

الأغنام.. تحسين الإنتاج لا مجرد زيادة العدد

يضم المركب حوالي 2400 نعجة منتجة

لكن التحدي الحقيقي في تربية الأغنام لا يكمن فقط في عدد الرؤوس، وإنما في الإنتاجية

ولهذا تبرز أهمية مراقبة النمو، وتحسين التغذية، وانتقاء الحيوانات، وتحسين المراعي، وتطوير برامج التحسين الوراثي

وفي 2026 تمت متابعة برامج ميدانية مرتبطة بمراقبة نمو الأغنام وتأمين المخلفات الزراعية في تغذية الحيوانات، في اتجاه جعل الإنتاج الحيواني أكثر علمية ونجاعة

الدواجن والبيض

يمثل نشاط الدواجن حلقة إضافية في منظومة التنويع، مع إنتاج يقارب 700 ألف بيضة وفق المعطيات التي أعلن عنها مدير المركب

وهو نشاط يضيف منتجاً سريع الدورة إلى جانب الأشجار التي تحتاج سنوات حتى تعطي مردودية اقتصادية

2,400 نعجة 600 بقرة أرقام الشعّال

منظومة حيوانية موازية للنشاط النباتي، تضم حوالي 600 رأس من الأبقار و2400 نعجة منتجة، إضافة «إلى نشاط الدواجن وإنتاج البيض

من مخلفات الزيتون إلى أعلاف.. الاقتصاد الدائري يبدأ من الأرض

من أهم التحولات التي يمكن أن تمنح الشعّال قيمة إضافية هو الانتقال من منطف «النفائات» إلى «منطف المورد

فالزيتون لا ينتهي عند خروج الزيت من المعصرة

هناك الفيتورة والزبيرة وغيرها من المخلفات التي يمكن، بعد المعالجة المناسبة، إدخالها في حلقات إنتاج أخرى، وخاصة في تغذية الحيوانات

وهنا يمكن تصور دورة متكاملة

زيتون → زيت → مخلفات → أعلاف → حيوانات → حليب ولحوم → سماد → تربة → إنتاج

هذا النموذج لا يقلل فقط من المخلفات، بل يمكن أن يخفض كلفة الإنتاج، ويحسن استخدام الموارد،
ويقرب الشغل من نموذج الاقتصاد الدائري الفلاحي

وهو توجه يستحق التوسيع والدراسة، لأنه يتلاءم تماماً مع طبيعة المركب وتنوع أنشطته

يتبع...